علاقة نجد بالشام

من ١١٥٧هـ إلى ١٢٢٥هـ

بقلم/ عبدالله حمد الحقيل



تمثل هذه المقالة عرضا وثائقيا سريعا وتسجل مرحلة من مراحل علاقة الدولة السعودية الأولى مع الشام والدولة العثمانية ويعتبر هذا المقال بمثابة محاولة مبدئية لدراسة الوثائق التي تحتاج منا الى المزيد من الدراسة والتفصيل والتحليل لتظل مرجعا مفيدا للباحثين والدارسين لحياة تلك المرحلة من تاريخ بلادنا.

ولقد لقيت بعض جوانب من تاريخ بلادنا في العصور المتأخرة اهتماما جيدا من لدن الباحثين ومن أبرز ذلك تلك الدراسات التاريخية التي غطت جوانب من تاريخ المملكة العربية السعودية ولاتزال هناك جوانب من ذلك التاريخ في حاجة الى القاء المزيد من البحث والتنقيب والدراسة.

وفي بداية المقال أومىء بشيء من الايجاز عن نشأة الدعوة السلفية وانتشارها وما واجهته من حرب وخصومات.

ولما كانت هذه الدراسة عن العلاقات مع الشام وكما هو معروف فإن الشام هي موطن شيخ الاسلام أحمد بن تيمية وتلميذه محمد بن قيم الجوزية وهما الإمامان اللذان تأثر بهما الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ويقول الدكتور / منير العجلاني في كتاب «تاريخ البلاد العربية السعودية الجزء الأول ص ٢٣٧... كان الشيخ يحب ابن تيمية ويجله كثيرا ويطلب كتبه وأقواله في كل مكان وربما نسخها بخط يده ويقال انه طلب من الامام الصنعاني في اليمن عام ١١٨٠ كتبا لابن تيمية وابن القيم كانت عنده».

ومن المعروف أن الكثير من أبناء الشام وخاصة قبائل البادية قد أقبلت على اعتناق مبادىء الدعوة ودفعوا الزكاة الى الامام عبد العزيز بن محمد وكما روى ابن بشر قائلا لقد ظهر مع عمال من حلب قاصدين الدرعية وهم ست نجائب محملات ريال زكوات بوادي أهل الشام.

ويدل هذا على أن ولاءهم لأمير الدرعية وليس لوالي الشام من قبل السلطان

العثماني.. ولقد ازداد النفوذ السعودي في عهد الامام سعود بن عبد العزيز وأصبح لهم دعاة هناك الى أن انتهى هذا الدور بسقوط الدولة السعودية الأولى حينما استطاع ابراهيم باشا تخريب الدرعية وأرسل الامام عبد الله بن سعود الى محمد علي باشا في مصر في ١٧ محرم ١٢٣٤هـ.

أولا – نشأة الدعوة السلفية وانتشارها :

(أ) نجد قبل الدعوة السلفية :

يفيض ابن غنام – وهو مؤرخ معاصر لتلك الفترة – عن انتشار الضلال لا في نجد وحدها بل في ديار المسلمين كافة فقد كان أكثر المسلمين – في مطلع القرن الثاني عشر الهجري – قد ارتكسوا في الشرك، وارتدوا الى الجاهلية، ونبذوا كتاب الله تعالى، واتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم لظنهم انهم أدرى بالحق فعمدوا الى عبادة الأولياء والصالحين. أمواتهم وأحيائهم يستغيثون بهم في النوازل والحوادث ويستعينون بهم على قضاء الحاجات وتفريج الشدائد، بل ان بعضهم كان يرى في الجمادات كالأحجار والأشجار القدرة على تقديم النفع ودفع الضرر.. فغدوا اليها يبتهلون لقضاء حاجاتهم فأحلوا بذلك ما حرم الله ونسوا قوله تعالى (لا تتخذوا إلهين اثنين، إنما هو اله واحد فإيّاي فارهبون). وعين هذا الأمر كان يحدث في نجد حتى ان ابن غنام يقول في ذلك: «وقد كانت من بين هذه القبور قبور تنسب الى بعض الصحابة يحج اليها بعض الناس ويطلبون منها قضاء الحاجات»(١).

ولم تكن الحالة السياسية في نجد أحسن حالا من الحالة الدينية وفي ذلك يقول الدكتور منير العجلاني «فقد كانت هناك مجموعة كبيرة من الامارات والمشيخات تنفرد كل واحدة منها بسلطانها وتعتز باسمها ولا ترى شيئا فوقه، وقد تتحالف أحيانا لقتال الآخرين واستباحة ديارهم وأموالهم، ولكنها متى فرغت من قتال عدوها، عادت تتقاتل فيما بينها ولما يجف مداد عهدها ودم جندها..

وكانت البلاد تعيش في رعب دائم، بين عدو يأخذها بالقهر، وحليف بالغدر، وماكانت تعرف السكينة، والأمن والحرية الا قليلا(٢).

ثانيا – الشيخ محمد بن عبد الوهاب – سيرته ودعوته:

هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد ابن بريد بن محمد بن مشرف التميمي، ولد سنة خمس عشرة بعد المائة والألف من الهجرة في بلدة العيينة من بلدان نجد(٣) عند أبيه عبد الوهاب بن سليمان القاضي فيها زمن عبد الله بن محمد بن حمد بن عبد الله بن معمر الذي قويت العيينة في زمنه، قبل انتقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب منها الى بلدة حريملاء(٤).

تلقى الشيخ محمد العلم أيام الطفولة في بلدته العيينة، فحفظ القرآن قبل بلوغه العاشرة من عمره، وكان جاد الفهم، وقاد الذهن، سريع الحفظ، فصيحا فطنا(٥)، فقرأ على أبيه في الفقه وكان رحمه الله في صغره كثير المطالعة في كتب التفسير والحديث وكلام العلماء في أصل الاسلام. فشرح الله صدره في معرفة التوحيد وتحقيقه ومعرفة نواقضه المضلة، عن طريقه. وكان الشرك اذ ذاك قد فشى في نجد وعلى نحو ما أوضحنا بايجاز من قبل.

وبدأ الشيخ رحلاته العلمية المثمرة بحج بيت الله الحرام، ثم أقام في المدينة المنورة حيث أخذ فيها العلم عن الشيخ عبد الله بن ابراهيم النجدي ثم المدني، وكذلك أخذ عن الشيخ محمد حياة السندي المدني، ثم قصد البصرة وفيها سمع الحديث والفقه من جماعة كثيرين، وقرأ بها النحو وأتقنه. وكان أثناء مقامه في البصرة ينكر ما يرى ويسمع من الشرك والبدع، وينشر أعلام التوحيد، ويكرر على الناس أن العبادة كلها لا تصلح الا لله. فلما تكرر منه ذلك آذاه بعض أهل البصرة، وأخرجوه منها وقت الهجير، فانتهى في النهاية عائدا الى نجد وفي طريقه اليها مر بالأحساء ونزل فيها على العالم عبد الله بن محمد بن عبداللطيف

الشافعي الأحسائي.

ثم اتجه الى بلدة حريملاء التي كان أبوه قد انتقل اليها عام ١١٣٩هـ، فأعلن دعوته، اشتد من انكاره لمظاهر الشرك والبدع، وجد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. فذاع ذكره في جميع بلدان العارض وانقسم الناس فيه فريقين: فريق تابعه وبايعه وعاهده على ما دعا اليه، وفريق عاداه وحاربه وأنكر ذلك عليه وهم الأكثر[٦] ولما أحس الشيخ بالخطر يتهدده في حريملاء عاد الى العيينة فأكرمه رئيسها يومئذ عثمان بن حمد بن معمر وتزوج فيها من ابنة عبد الله بن معمر.

عرض الشيخ علي عثمان دعوته فاتبعه وناصره وألزم الخاصة والعامة أن يمتثلوا أمره. وكان في العيينة وما حولها كثير من القباب والمساجد والمشاهد المثبتة على قبور الصحابة والأولياء، والأشجار التي كانوا يعظمونها كقبة قبر زيد بن الخطاب في الجبيلة فخرج الشيخ محمد ومعه عثمان وكثيرون بالمعاول فقطعوها وهدموها.. وكان الشيخ هو الذي هدم قبر زيد بن الخطاب بيده.

وجاءت امرأة زَنَتْ تعترف للشيخ فتثبت الشيخ من أمرها عدة مرات حتى لم يعد هناك شك فطلب من الوالي تنفيذ حكم الله فيها، فطارت قلوب أهل البدع والضلال خوفا فشكوه الى شيخهم سليمان آل محمد رئيس بني خالد في الأحساء فكتب الى عثمان يأمر بقتل الشيخ أو اجلائه عن بلده، وهدده بأنه ان لم يفعل ذلك قطع عنه خراجه في الأحساء واستباح أمواله لديه، وعندئذ آثر عثمان أن يأمر الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالخروج من العيينة.

فخرج الشيخ الى بلدة الدرعية وكان ذلك سنة سبع أو ثمان وخمسين ومائة وألف واستقر به المقام فيها عند الشيخ أحمد بن سويلم حيث أتاه الأمير محمد ابن سعود ومعه أخواه ثنيان ومشاري وسلم أمير الدرعية على الشيخ، وأبدى له غاية الكرم والتبجيل، وأخبره بأنه يمنعه بما يمنع به نساءه وأولاده. وأخذ الشيخ يشرح معنى التوحيد الحقيقي وبعدها عاهده الأمير على النصرة له وعلى الجهاد لمن خالف التوحيد، لقد كان محمد بن سعود زعيما وقائدا وكان محمد بن

عبدالوهاب هاديا وداعيا الى الله.. وبفضل تعاونهما حطمت الأوثان، وهدمت الأبنية المقامة على أضرحة الأولياء، ونفذت أوامر القرآن(٧).

وقبلُ أن نعرف شيئا عما أسفر عنه هذا اللقاء التاريخي الشديد الأهمية من نشر دعوة الشيخ في أرجاء الجزيرة العربية يمكننا أن نلخص العوامل التي جعلت من الشيخ داعيا مصلحا وهي:

(أ) البيت : فقد نشأ الشيخ في بيت علم وكان والده ضليعا في الفقه.

(ب) الدراسة : فقد حفظ القرآن في سن صغيرة ثم انكب على كتب الفقه وبخاصة كتب ابن تيمية وابن القيم.

(جـ) الشخصية : اذ أن الشيخ كان ذو شخصية قوية وحجة سليمة وقدرة على الاقتناع طلق اللسان لا تفتر همته.

(د) الرحلات العلمية : وقد أشرنا الى البلاد التي ارتحل اليها وأخذ من علمائها مما وسع من آفاقه.

(و) البيئة : فقد نشأ في بيئة مليئة بالبدع والفتن فتحداها بإيمانه.

(هـ) مناصرة الامام محمد بن سعود له وهي أقوى عوامل نجاح الدعوة.

استعدادات والي الشام لمواجهة ابن سعود في الحجاز :

كانت الشام تابعة للدولة العثمانية أيام نشأة الدولة السعودية الأولى فقد كانت ولاية من الولايات الهامة التي يعتمد عليها الحكم العثماني.

لم يعر السلطان العثماني محمود الأول (١١٤٣ - ١١٦٨هـ = ١٧٣٠ - ١٧٥٤م) مسألة نجد أذناً صاغية، عندما قامت الدولة السعودية الأولى فيها سنة ١١٥٨هـ ١٧٤٥م، لأنه اعتبر ما حدث مجرد حركة سطحية آنية، لن تلبث أن تختفي وتتلاشى دون التعرض لها أو مجرد التفكير في ذلك. وتطالعنا الوثائق التركية بتقارير كثيرة كتبها الشريف غالب بن مساعد أمير مكة المكرمة عن الدعوة السلفية وابن سعود. لكن السلطان العثماني اعتبر هذه التقارير مليئة بالمبالغات والمفارقات التي لا تصدق بعد أن أحال الموضوع الى «مجلس المشورة» لأخذ الرأي في مواجهة الموقف في نجد. وتوالت تقارير الشريف غالب يستنجد بالدولة العثمانية، ويحثها على مواجهة الموقف، ولكن ذهبت كل مساعيه هباء، حيث لم تنظر الدولة العثمانية للموضوع الا أنه يكون عبارة عن خلافات شخصية بين الشريف وابن سعود، ولن تؤدي الى ضرر بالدولة العثمانية وسيادتها على المنطقة.

ولم يتوقف الأمر على الشريف بل ان والي بغداد ووالي الشام قاما بكتابة تقارير عن نجد وعن ابن سعود وعن الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

وكانت هذه التقارير تشكو من كثرة الأنصار والأتباع في نجد وما حولها حتى منطقة الحرمين الشريفين. فقد دخلت في الدعوة قبائل كثيرة أصبحت تدافع عن الدعوة وتعيش لها وتعتنق مبادئها تدعو اليها وتود التضحية والفداء في خدمة مبادىء الاسلام الصحيحة التي تنادي بها هذه الدعوة(٨).

وعندما كثرت التقارير وتعددت مصادرها، لم يجد السلطان أمامه الا أن يصدق ما ذكر له، فبدأ في النظر الى الموضوع على أنه مسألة خطيرة وهامة تدعو الى مواجهتها بكل حزم وقسوة، قبل أن يستفحل أمرها ويتسع نطاقها.

ودور الوثائق التركية مليئة بالوثائق الخاصة بتكليف السلطان العثماني لوالي بغداد بمواجهة ابن سعود، ولكن والي بغداد وجد انه لا قبل له باجتياز صحراء نجد القاحلة اذ هي صعبة المسالك ووعرة الدروب، فأخذ يعد السلطان بتنفيذ

المهمة التي أوكل اليه تنفيذها. وعندما كثر الحاح السلطان عليه أخذ يسوف تحت ستار البدء في التجهيز والاعداد. وأخبر السلطان بأن المهمة تحتاج الى وقت لكي يتم الاعداد الكافي، لأن المهمة صعبة وشاقة. وكثرت فرمانات السلطان لوالي بغداد، يأمره بأن ينفذ ما كلفه به. ولما أحس والي بغداد بأن المهمة شاقة وعسيرة نظرا لعدم وجود المياه والكلأ في الطريق ووعورة الصحراء وخطورة اجتيازها، وقلة الامكانيات المالية، وعدم توفر التجهيزات والمعدات العسكرية اللازمة للغرض. كما أن والي بغداد وضع في حسابه انه لا قِبل له بتنفيذ المهمة، نظرا لقوة ابن سعود وشدة بأسه. فأخذ يراوغ ويتعلل بعدم المقدرة منفردا بالقيام بما كلف به. وأشار على السلطان بأن يكلف والي الشام ووالي مصر بالمهمة لأن اجتياز صحراء نجد من ناحية العراق تحفه المخاطر والصعوبات، نظرا لإمكانية الضياع في الصحراء الشاسعة الموحشة، وتوقع مفاجأة ابن سعود للجيش الزاحف نحوه في هذه الصحراء التي لا ملجأ فيها ولا مأوى، فتكون النتيجة كارثة على الجيش المتحرك الذي يمكن لقوة ابن سعود الهائلة إفناءه وتدميره عن آخره. كما تعلل والي بغداد بالخطر المرتقب على العراق من جهة ايران، نظرا لأطماعها في تلك المناطق التي بها الأماكن المقدسة الخاصة بهم. وأشار الى الحشود المستمرة على الحدود الايرانية العراقية من القوات الايرانية ومن القوات العراقية تحسبا لما عسى أن يحدث.

ولما يئس السلطان العثماني من والي بغداد، اتجه الى والي الشام عله يجد فيه ضالته التي افتقدها في والي بغداد..

وهنا يجدر بنا الحديث مفصلا عما حدث من والي الشام بعد تكليفه بمهمة مواجهة ابن سعود.

١ – عهـد يوسف باشـا :

أرسل والي الشام يوسف باشا في ١١ جمادى الأولى سنة ١٢١٥هـ تحريرات الى السلطان العثماني يخبره فيها بأن محمد على باشا قام بالاتصال بالشريف

غالب بعد أن صدر اليه الأمر العالي بمهمة مواجهة آل سعود. وأن محمد علي يرى أن المهمة ستكون شاقة لو أن الشريف أخذ جانب ابن سعود بعد أن قوى حصون جدة، حيث أن الذخائر والعساكر لن يمكن نقلها الى الأراضي الحجازية والأمر كذلك. ويهيب بالسلطان أن يعهد اليه بغزة ويافا لتسهيل نقل المؤن والذخائر من السويس.

ويفهم من هذه الوثيقة الى أن والي الشام أقنع السلطان العثماني بأن المهمة لا يمكن أن يقوم بها وحده، ولكن ينبغي أن يكون الدور الأكبر فيها لمحمد علي باشا(٩).

وبدأ كبار الشخصيات في الحجاز وبغداد والشام يرسلون التقارير أيضا عن الدعوة السلفية وأصحابها، بتكليف من ولاة الدولة العثمانية في هذه المناطق أو بأمر من الدولة العثمانية ذاتها.

كتب قاضي الشام سيد محمد نور الله أفندي في ١٣ ذي الحجة سنة ١٢١٧هـ تقريرا للسلطان العثماني عن بعض الأمور الخاصة بالشام وعن عزيمة السلفيين التحرك نحو الحرمين الشريفين والبصرة وبغداد(١٠).

٢ - عهد أحمد باشا الجزار :

استقر رأي السلطان على تعيين أحمد باشا الجزار واليا على الشام وسردارا (قائد عام الجيش) على الحجاز، لما عرف عدم جدية والي الشام السابق في تنفيذ مهمته وتكاسله(١١).

وبعد هذا التعيين دخل عبد العزيز بن حمد بن سعود المدينة المنورة فاتحا، فأغضب هذا التصرف السلطان العثماني وأرسل الى أحمد باشا الجزار يحثه على مواجهة ابن سعود، وقد رد عليه الجزار قائلا بأنه أذعن للأمر وسينفذ ما أمر به حالا(١٢).

ولما أحس السلطان العثماني بأن الموضوع لم يؤخذ مأخذ الجد ولم يحدث فيه شيء أمر الصدر الأعظم بكتابة فرمانات وأوامر الى كل من والي بغداد لتعيينه سردارا من جهة العراق على الحجاز بالاضافة الى التعيين السابق لأحمد باشا الجزار سردارا على الحجاز أيضا لقيادة الجيش الشامي الى الحجاز. وقد تضمنت الأوامر التي وصلت الى والي الشام الاستفسار عن مقدار العساكر التي أرسلت الى الحجاز ونوع الذخائر[١٣].

أحس الصدر الأعظم بأن الشام مليء بالاضطرابات والقلاقل ولا يجوز في هذه الظروف والأوضاع تحرك أحمد باشا الجزار الى مهمته في الحجاز قبل رأب الصدع في الشام الذي امتلأ بالقلاقل والفتن التي يثيرها العربان هناك. فأوصاه في رسالة بعث بها اليه في شوال ١٢١٨هـ باصلاح أمور الشام أولا قبل القيام بمهمة الحرمين بالتعاون مع علي باشا والي مصر[١٤].

ورغم كل ذلك فان أحمد باشا الجزار لم يأخذ الموضوع بجد وأخذ يراوغ لأنه أحس أنه لا يقدر على تحدي ابن سعود. والوثيقة التالية تدل على أن الجزار لم يفعل شيئا بخصوص موضوع الحجاز. فلم يستعد بالعساكر ولا حتى بالذخيرة والمهمات الأخرى، ولا هو تحرك لأخذ أي خطوة عملية في هذا السبيل وقد قام رئيس الكتاب بكتابة تقريرا بما آل اليه الوضع بالنسبة للجزار وقدمه للسلطان. وقد ذكر فيه أن الجزار أرسلت اليه الأوامر السامية بخصوص مهمة الحجاز مرارا وتم استعجال الموضوع عدة مرات ولكن النتيجة واحدة، وهي أنه لم ينفذ أي شيء[١٥].

(للحديث صلة)

الهـوامش

(١) انظر حسين بن غنام، تاريخ نجد، تحقيق د. ناصر الدين الأسد، مصر سنة ١٣٨١هـ /١٩٦١م ص١١، ٢١، وانظر للشيخ أحمد بن عبد العزيز آل مبارك رئيس القضاء الشرعي بدولة الامارات العربية المتحدة، «حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وآثاره العلمية» وقد نشر في كتاب حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وآثاره العلمية نشرة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية الرياض ١٤٠٠هـ /١٩٨٠م.

(٢) د. منير العجلاني، تاريخ البلاد العربية السعودية، ج١ عن الدولة السعودية الأولى، بيروت ص٣٥، ٣٦.

(٣) حسين بن غنام، المرجع السابق ص ٧٥.

(٤) عثمان بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، جـ١ المملكة العربية السعودية ١٣٩٤هـ ص١٩.

(٥) حسين بن غنام، نفس المرجع نفس الموضع.

(٦) ابن غنام المرجع السابق ص ٧٦، ٧٧.

(٧) هذا مما أورده الدكتور منير العجلاني، المرجع السابق جـ١، ص٣٨، ٣٩ وهو ينقل عن آرمسترونج المؤرخ وصفه للقاء التاريخي بين ابن سعود وابن عبد الوهاب.

(٨) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /١٣٦ من مقتنيات دارة الملك عبد العزيز وهي عبارة عن تقرير من أحمد باشا الجزار والي الشام وصيدا.

(٩) انظر الوثيقة ٤ /١ /٢٢ من مقتنيات الدارة.
(١٠) انظر الوثيقة ١ /٢ /٤٣٥ من مقتنيات الدارة.
(١١) انظر الوثيقة ٥ /١ /٩٩ من مقتنيات الدارة.
(١٢) انظر الوثيقة ٤ /١ /٧ من مقتنيات الدارة.
(١٣) انظر الوثيقة ١ /٢ /٣١ من مقتنيات الدارة.
(١٤) انظر الوثيقة ١ /٢ /٤٢٠ من مقتنيات الدارة.
(١٥) انظر الوثيقة ١ /٢ /٢٠ من مقتنيات الدارة.



في الفترة من ١١٥٧ إلى ١٢٢٥ هـ

بقلم الأستاذ / عبد الله حمد الحقيل

لقد تناولنا في الحلقة الأولى من هذه الدراسة، والتي ظهرت في العدد السابق عرضاً موجزاً لما واجهته الدعوة السلفية من أذى وحروب وخصومات حتى حقق الله لتلك الدعوة الظهور والانتشار رغم ما واجهته من حروب.

٣ – عهد صالح بك:

عين السلطان صالح بك واليا على الشام خلفا لأحمد باشا الجزار وقد قام صالح بك بعد تعيينه بكتابة تقرير عن مهمة الحجاز وذكر فيه أنه لا غنى عن اشتراك محمد علي باشا في دفع الوهابيين(١) عن الحجاز، لأن المهمة شاقة وليست هينة بحال من الأحوال. كما أوضح في تقريره أن طاهر باشا قد وصل الى جدة مع واليها الجديد زين العابدين باشا ومعه ألف وخمسمائة جندي لتخليص المدينة من حصار ابن سعود(١٦).

وبعد أن تطورت الأحداث، أرسل صالح بك تقريرا آخر يعزز التقرير السابق ويضيف اليه ما استجد في الموضوع. فيذكر أنه بالاضافة الى وصول المدد العسكري الذي يرأسه طاهر بك، فالأمل معقود على وصول مدد آخر من **محمد علي باشا الى المدينة المنورة**(١٧).

كل هذا يدل على أن السلطان العثماني وقع في حيرة من أمره، فمرة يكلف والي بغداد. وبعد أن يحس بالتسويف الكثير والتهرب من المأمورية، يكلف والي الشام، ووالي الشام بدوره يماطل ويماطل. ويقول كما قال والي بغداد بأنه لا غنى عن اشتراك والي مصر في المهمة ويسوق الحجج ويقدم الأعذار. ويقوم السلطان العثماني بارسال أوامره مرارا وتكرارا للضغط على هؤلاء الولاة. وقد كلف بعض الشخصيات الأخرى بالمساعدة والمعاونة في تنفيذ هذه المهمة.

٤ - عهد عبد الله باشا العظم :

وخلف عبد الله باشا العظم صالح باشا في ولاية الشام. وبعد التولية أرسل عبد الله باشا عدة رسائل الى السلطان العثماني يخبره فيها بتطورات الأمور بخصوص الاستعدادات التي تجري لمهمة الحجاز، وقد أفاد بأنه أعد كل اللوازم والمهمات لتيسير سفر **والي جدة زين العابدين باشا من الشام**، ويعد العدة لكي تسافر الجردة العسكرية المرافقة له. وقد وعد بتسهيل مهمة الحرمين الشريفين، وتيسير أمورها رغم بعض الاضطرابات القائمة في بعض مناطق الشام وصعوبة التغلب عليها بسهولة(١٨).

ولا يوجد لدينا وثائق تدل على أن عبد الله باشا العظم قام بخطوة ايجابية في سبيل مهمة الحجاز، ولكنه سافر الى الحجاز فقط كأمير للحج الشامي، والوثيقة التالية بها ملخص لعدة مراسلات بعث بها الى السلطان العثماني. وقد قام الكتاب بتلخيصها لعرضها، وتتضمن قيام عبد الله باشا على رأس الحجاج وبرفقته **والي جدة المعين زين العابدين باشا**، ولا تتضمن أي اشارة الى مواجهة عسكرية مع **ابن سعود**(١٩).

لم تتخذ التدابير اللازمة لمواجهة ابن سعود من قبل الدولة العثمانية، ولا أقدمت على خطوة عملية في هذا الصدد. وكل ما جرى من قبل والي بغداد



أو والي الشام كان بمثابة وعود براقة وامال وأحلام، لم يتحقق منها شيء ولا هي قابلة للتحقيق نظرا لثقل المسئولية وضخامة التبعات وتسويف كل منهما.

وقد **اجتمع مجلس الشورى العثماني في منزل شيخ الاسلام**. وجرى بحث الموضوع برمته من كل جوانبه. وقد تجاذب المجتمعون الحديث والنقاش وأدلى كل برأيه في هذا الصدد.

وكان النقاش حرا لم يتقيد بقيود. وقد تضاربت الأقوال والآراء وبرزت بعض الصعوبات نظرا لتعدد الآراء والحجج. وقد رجحت بعض الأقاويل الى حد ما، وتركت بعض المواضيع لكي يقررها السلطان بنفسه – ويتبين مما دار في جلسة المجلس أن الدولة العثمانية قد أصابها الارتباك والحيرة من جراء ما جرى في الحجاز، فهي لا تعرف لنفسها مخرجا من الأزمة. خاصة وان من كلفوا باجراء المهمة تنصلوا منها ووضعوا العراقيل والصعوبات في سبيل تنفيذها. دار النقاش حول تعيين قائد لجيش يخرج من الشام الى الحجاز، لاسترجاع الحرمين الشريفين من أيدي السعوديين ويرابط هناك ويكون في وضع يؤمن الصلح بينهم وبين أمير مكة الشريف غالب، مع عمل التدابير اللازمة للتوجه الى الدرعية.

غير أن المجلس تبين استحالة التوجه الى الدرعية، وان هذا من واجبات والي بغداد. وقد قرر المجلس تكليف والي بغداد بهذا العمل، في نفس الوقت الذي يتحرك فيه جيش آخر من الشام الى الحرمين الشريفين. وجرت مناقشات طويلة حول اختيار قائد لهذا الجيش الذي يتحرك من الشام. وهل يلزم أن يكون والي الشام بنفسه أم رجل عسكري آخر. وما مقدار التداخل في الاختصاصات بين مهام الرجلين؟[٢٠].

وقام **عبد الله باشا العظم** من جانبه بتقديم مقترحاته للسلطان العثماني لاستعادة الحرمين الشريفين للدولة العثمانية وعقد الصلح بين الشريف والسعوديين وتتضمن:

١ – تكليف وزير من أصحاب الثروة والجاه لايالة حلب.

 

٢ – تنصيب محافظ المدينة.
٣ – تكوين فرقة من ألف جندي من الخيالة والمشاة، وألف جندي آخر بقيادة ابن أحد الباشوات، ويتم تجهيز ذلك من الشام.

٤ – مرافقة والي مصر للمحمل واحضار الذخيرة من عنده.
٥ – العمل على اتمام الصلح بين الشريف غالب وابن سعود.
٦ – تسهيل تدارك الجمال باعفاء قرى الشام من التكاليف(٢١).

٥ – عهد يوسف كنج باشا :

وخلف يوسف كنج باشا سلفه عبد الله باشا في حكم الشام. وقد قام يوسف باشا بعد توليه بارسال تحريرات من قبله الى السلطان العثماني يخبره برأيه في مسألة الحجاز وبما تم من انجازات في سبيل هذه المهمة، والعقبات التي تقصر دونها بعض الاستعدادات.

كما وصلت الى السلطان تحريرات أخرى من والي بغداد علي باشا وقد أحال السلطان هذه التحريرات كلها الى مجلس الشورى لتدارس الموقف والادلاء بالرأي في هذا الخصوص. اجتمع مجلس المشورة في منزل شيخ الاسلام، وقرئت على الحاضرين تقريرات والي الشام ووالي العراق حول تطورات الوضع في الحجاز، والعقبات التي تواجه الحصول على بعض اللوازم والضروريات لمواجهة ابن سعود.

وقد ورد في تحريرات والي الشام أنه مستقل بالقيادة العامة للحجاز ولديه عساكر وذخائر كثيرة، وأنه بحاجة الى الجمال لتحميل الذخيرة. ويود أن ترسل اليه مصر الذخائر أيضا كما أنه يحتاج الى ١٨ ألف كيس من النقود. وذكر **يوسف باشا أن محمد علي باشا تعهد بامداده بالذخائر والعساكر، ولكنه انشغل بطرد الانجليز**. أما والي بغداد فلم يقدم على أي عمل كما ورد في تقريراته(٢٢).

أخذ يوسف باشا الوالي الجديد يراوغ كأسلافه ولاة الشام. فتذرع في سنة ١٢٢٢هـ بمتطلبات حرب الدرعية من المهمات والذخائر لكي يطلب من

السلطان العثماني ضم طرابلس واللاذقية وغزة ويافا وعجلون اليه، أو أن تمده الدولة العثمانية بالمال والمهمات ويؤكد أنه رغم التجهيزات والمصروفات والمهمات التي حشدها. فانها لا تكفي بل انه مازال في حاجة الى المدد(٢٣).

وبعد أن دخل آل سعود الحرمين الشريفين أرسل والي الشام يوسف باشا تقريرا الى السلطان سنة ١٢٢٣هـ مؤداه أنه اتفق مع والي مصر علي باشا (محمد على باشا) ووالي بغداد سليمان باشا ثم انه يطلب من الدولة العلية تأمين المهمات المطلوبة له للتحرك، بعد أن وافق والي مصر ووالي بغداد على التحرك في نفس الوقت. ويستعجل والي الشام تنفيذ طلباته حتى يمكنه التحرك قبل حلول موسم الحج(٢٤).

وعاد والي الشام يطالب ببعض مناطق الشام لتسهيل مهمته، فطالب بغزة ويافا، لكي يتمكن من نقل الذخيرة والسلاح الى الحجاز، وينبه الى أن مسألة النقل تستلزم وقتا طويلا، نظرا لطول المسافة وصعوبة اجتياز الصحراء(٢٥).

وفي الوقت الذي بدأت فيه الدولة العثمانية تعد العدة لمحاربة ابن سعود، نقض الروس عهدهم مع الدولة وقاموا بمهاجمة بعض المناطق التابعة لها.

وقد قام والي الشام – تنفيذا لأوامر الدولة العثمانية بمواجهة السعوديين – بالاتصال بوالي جدة الشريف غالب ووالي مصر محمد علي باشا الذي وعد باكمال استعداداته خلال ثمانية أشهر.

وقد طلب **يوسف باشا** من الدولة العثمانية أن تبادر بمراسلة الشريف لضرورة الموافقة على دخول عسكر الشام الى الحجاز قبل التحرك(٢٦).

ووردت رسائل وتقارير من والي الشام يوسف باشا عن الحالة في الحجاز وعن ابن سعود، وقد قام الصدر الأعظم بتقديم خلاصة هذه المراسلات الى السلطان العثماني. وهي تتضمن انتشار وباء الطاعون في الجزيرة العربية. كما تتضمن تعيين الصدر الأعظم السابق يوسف ضياء باشا سردارا على الحجاز(٢٧).

توالت التقارير من **يوسف كنج باشا** عن الحالة في نجد وعن العربان الذين هاجمهم والي بغداد، فلجأوا الى الشام وتعقبهم والي الشام، فارتدوا الى بغداد مرة أخرى. ويقترح يوسف باشا في نهاية تقرير له أن تتحرك العساكر الى الدرعية من ثلاث جهات(٢٨).

وأرسل والي الشام عدة رسائل الى السردار الأكرم يعلن حاجته الى الذخيرة لمهمة الحرمين وينبىء عن استعداد والي مصر وترحيبه بارسال الذخيرة. ويطلب التأكد من تنفيذ والي مصر لتعهده، والكتابة اليه(٢٩).

وبدأت مراوغة والي الشام يوسف كنج تتضح شيئا فشيئا، فهو يراوغ بعد أن تعهد له محمد علي بامداده بالذخيرة، ويطلب من الدولة العلية ايضاحات عن نقل الذخائر لجيشه وعن رضى الشريف غالب عن نزول عساكر محمد علي في الحجاز(٣٠).

وصول السعوديين الى الشام :

لا شك أن الدعوة السلفية قامت لتنتشر في الآفاق ولم تقم لكي تقبع في نجد أو في الجزيرة العربية فقط. فهي دعوة اصلاحية لتصحيح الأفكار والمعتقدات التي بعدت عن مسار الاسلام الصحيح، بسبب تفشي الفوضى والخزعبلات والاعتقادات الباطلة التي لا تتفق وروح الاسلام.

كان الهدف اذا نشر الدعوة داخل الجزيرة العربية وخارج نطاقها في البلاد المجاورة أولا...

كانت الشام كما كانت العراق من قبل مستهدفة، لنشر الدعوة السلفية في أرجائها وقد اتبع **الامام سعود بن عبد العزيز في البداية طريق السلم**، فدعا والي الشام كما دعا والي بغداد من قبل الى اتباع الدين الاسلامي الصحيح والسير على هداه. ولما لم يعر والي الشام هذه الدعوة أذنا صاغية، وبدأ يستعد لمواجهة السعوديين في الحجاز لمحاولة ربطهم الى التبعية العثمانية، كان على الامام سعود أن يتوجه لنقل المعركة الى أرض الشام قبل أن يداهمه والي الشام في الحجاز.

وتفيض الوثائق في ذكر الارتباك الذي اعترى والي الشام يوسف كنج باشا بعد أن علم بتحرك السعوديين نحو بلاده من الشيخ صقر وقام بتقوية القلاع والاستعداد للمواجهة المرتقبة، وفي ذهنه هزيمة والي بغداد وقواته أمام السعوديين في كربلاء والنجف(٣١).

وأرسل يوسف كنج رسالة أخرى الى السلطان يخبره فيها بأن والي بغداد نصحه بأن يؤخر القوافل حتى لا تتعرض للأخطار لأن ابن سعود قد تحرك قاصدا الشام.

كما اطلع السلطان على كافة استعداد **قادة اللاذقية وطرابلس وحماه وحمص والقدس لأي مفاجأة** وارساله الجواسيس الى كل الأنحاء والي المضايق والمعابر لمراقبة الوضع في تلك المناطق عن كثب منعا للعواقب التي تحدث من جراء المفاجأة والمباغتة(٣٢).

ثم كان لقاء الجيش جيش الشام وجيش ابن سعود عند مزيريب، وحدثت بينهما معركة حامية سقط فيها قتلى كثيرون من الطرفين. **وانضم الى السعوديين كثير من عربان الشام أثناء اجتيازهم صحراء الشام.** وقد رجع ابن سعود من هذه المعركة بعد أن أبلى فيها بلاء حسنا وحقق بعضا من أهدافه، وهو نشر الدعوة السلفية في المناطق المجاورة(٣٣).

وبعد أن دخل **الامام سعود بن عبد العزيز الشام** ووصل في أراضيها حتى شمال مزيريب، وأصبح له أتباع كثيرون في هذه المناطق، قام سليمان باشا والي صيدا بتأمين الذخيرة وكذلك الحنطة والشعير والذرة من عكا وصيدا ويافا وأرسلها الى استانبول. كما تسلم الأموال المقتضبة الأداء من صيدا عن سنة ١٢١٩ – ١٢٢٤هـ، ونبه الى صعوبة الحصول على الذخيرة من غزة والرملة، نظرا لظروف هجرة معظم السكان وقلة الأمطار التي أدت الى النقص في المحاصيل. ثم يتعهد بأن يقف في مواجهة الامام سعود بن عبد العزيز اذا ما عاد الى الشام مرة أخرى(٣٤).

ولما يئس السلطان من كثرة مراوغة يوسف كنج عزله من منصبه، وعين مكانه سليمان باشا والي صيدا، كما كلفه بسردارية الحجاز.

كان موقف سليمان باشا كموقف أسلافه تماما، وعد بتنفيذ المهمة ثم أخلف الوعد، وأخذ يراوغ حتى يئس السلطان من كثرة مراوغته ودهائه، وقرر في النهاية أن يضغط على محمد علي باشا، لكي ينفذ المهمة الشاقة التي تخلى عنها ولاة الشام، كما تخلى عنها ولاة بغداد من قبل. والهدف هو هو محاولة تحطيم الدعوة السلفية ولكنها بقيت مشرقة مضيئة يبهر سناها كل الحاقدين وأعداء الاسلام وستظل شريعة الله نورا وهاجا تضيء المسالك والدروب لجميع المؤمنين.



الهوامش

(*) الوهابيون اصطلاح أطلقه خصوم الدعوة السلفية ممن لا يعرفون حقيقة الدعوة وأهدافها النبيلة ومقاصدها السامية.

(١٦) انظر الوثيقة رقم ٢ /٢م /٦ من مقتنيات الدارة.
(١٧) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /١٤٩ من مقتنيات الدارة.
(١٨) انظر الوثيقة رقم ١ /٢ /٤٢ من مقتنيات الدارة.
(١٩) انظر الوثيقة رقم ١ /٢ /٤٣ من مقتنيات الدارة.
(٢٠) انظر الوثيقة رقم ١ /٢ /٥٧ من مقتنيات الدارة.
(٢١) انظر الوثيقة رقم ١ /٢ /٥٨ من مقتنيات الدارة.
(٢٢) انظر الوثيقة رقم ١ /٢ /٦٢ من مقتنيات الدارة.
(٢٣) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /٨٦ من مقتنيات الدارة.
(٢٤) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /٩٣ من مقتنيات الدارة.
(٢٥) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /١١٦ من مقتنيات الدارة.
(٢٦) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /٢٥ من مقتنيات الدارة.
(٢٧) انظر الوثيقة رقم ١ /٢ /١٧٠ من مقتنيات الدارة.
(٢٨) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /١٠ من مقتنيات الدارة.
(٢٩) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /١٧ من مقتنيات الدارة.
(٣٠) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /٢٧ من مقتنيات الدارة.
(٣١) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /١ من مقتنيات الدارة.
(٣٢) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /٢٩ من مقتنيات الدارة.
(٣٣) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /٣١ من مقتنيات الدارة.
(٣٤) انظر الوثيقة رقم ٤ /٦ /١٠ من مقتنيات الدارة.